مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 18 العدد: 02 السنة 2026 ص 154 - 172

تاريخ الإرسال: 2025/07/04 تاريخ القبول: 2025/11/06
تاريخ النشر: 2026/11/16

الفلسفة اليونانية وتأثيراتها في الدراسات اللغوية والنقدية "دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني نموذجا"

Greek philosophy and its effects on linguistic and critical studies "dalael al idjaze of Abdul-Qaher al-Jarjani as a Model"

[1] د. رابح بوشعشوعة،
جامعة عباس لغرور خنشلة الجزائر rabah.bouchachoua@univ-khenchela.dz
[2] د. عبد المالك بن شافعة،
جامعة عباس لغرور خنشلة الجزائر؛ Benchafaa.malek@univ-khenchela.dz

الملخص:

تسعى المداخلة إلى البحث في مشكلة الفلسفة ودورها في الجهود النقدية والبلاغية عند واحد من كبار النقاد والبلاغيين وهو عبد القاهر الجرجاني، حيث ستركز الدراسة على كتاب "دلائل الإعجاز" الذي يعد المهاد التأصيلي الذي أسست عليه كل الجهود التي جاءت بعده، فكتاب دلائل الإعجاز في البلاغة والأدب ككتاب الرسالة للشافعي في أصول الفقه.

إن هذه الدراسة ستبحث في أهم قضية دارت حولها الدراسات الحديثة وهي أن النقاد والبلاغيين العرب المسلمين تأثروا إلى حد بعيد بالفكر الفلسفي الوافد (اليوناني خاصة)، وسنحاول من خلال ذلك الإجابة عن السؤال التالي: هل حقا تأثرت تلك

الجهود النقدية والبلاغية القديمة بالفكر الفلسفي الوافد؟ وإن كان هناك تأثر فما هي أهم مظاهر هذا التأثر وما هي أهم تجلياته في هذه الجهود؟.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، اليونانية، اللغة، النقد، دلائل الإعجاز

Abstract

The intervention seeks to research the problem of philosophy and its role in the critical and rhetorical efforts of one of the major critics and rhetoric, Abdel-Qaher al-Jarjani, where the study will focus on the book "Evidence of Miracles", which is the original pedigree on which all the efforts that came after it were based, so the book of signs of miracles in rhetoric And literature as a book of the letter to al-Shafi'i in the origins of jurisprudence.

This study will examine the most important issue around which modern studies revolve, namely that Arab Muslim critics and rhetoric have been influenced to a great extent by the incoming philosophical thought (Greek in particular), and we will try to answer the following question: Are these old critical and rhetorical efforts really influenced by incoming philosophical thought? And if there is an impact, what are the most important manifestations of this impact and what are its most important manifestations in these efforts?

Keywords: Philosophy, Greek, language, criticism, evidence of miracles

المؤلف المرسل: د. رابح بوشعشوعة، RABAH.BOUCHACHOUA@UNIV-KHENCHELE.DZ

1. مقدمة عن الإعجاز:

إن الثقافة العربية بكل فروعها وعلومها الإنسانية منها والمادية قد قامت على فكرة الإعجاز، تلك الفكرة التي كانت مرتبطة بالوحي أشد الارتباط، ولذلك فالبلاغة العربية بعلومها الثلاث إنما تدور حول المحور الإعجازي، وكل من يحاول إبعاد علوم العربية عن هذا المصدر فإنه يحاول عبثا، فـ" مقولة الإعجاز هي التي تأسست عليها حضارة أمة لا زال الوحي يشكل وجودها الحضاري وبغيابه يصبح المسلمون نكرات في تاريخ شعوب الأرض"[1].

وهذا ما سعى إليه العمل الاستشراقي بكل ما أوتي من جهد ووسائل، فحاول إبعاد الأمة الإسلامية اليوم عن منبع الوحي والإعجاز، وذلك عن طريق بث فكرة أن العلوم العربية إنما كانت تستمد روحها وجوهرها من التراث اليوناني الهلليني وذلك عن طريق "تزكية الاستمداد الثقافي من مدينة الغرب، ونسف أصالة الحضارات، وإرجاع كل شيء إلى أصله اليوناني، وهكذا جعل المستشرقون الفكر العربي الإسلامي مدينا بوجوده للتراث اليوناني"[2]. إن مسألة التأثير الهلليني تكمن خطورتها إذن في إبعاد البلاغة العربية عن الإعجاز القرآني، وهكذا كان وهكذا حصل، فقد كان طه حسين، علم بذلك أو لم يعلم "يريد أن يطمس ما قام عليه الإعجاز البياني للقرآن، ويضيف كيدا جديدا إلى الشك في الشعر الجاهلي، وغايته في الكيدين معا المس بإعجاز القرآن تحقيقا للكيد الخفي الذي زرعه مرجليوث في الفكر الحدث"[3].

وكان أول اتجاه أدبي حديث أثار هذه القضية هو الاتجاه الليبرالي في مطلع ثلاثينيات القرن الماضي، الذي ربط التراث العربي بالغارة الهللينية وعلى رأس هذا الاتجاه طه حسين وأمين الخولي، "فقد سعيا لإسقاط قمة عبد القاهر بربط عبقريته بشرح أرسطو والتعليق عليه، وكأنه حز في نفسيهما أن يقوم بكشوف عن خصوصية العبارة العربية، من شأنها أن تقرب العقول والأرواح والأذواق من جماليات النص

المعجز"[4]، وبذلك فتح هذان الرجلان الباب واسعا أمام كل من أراد أن يربط التراث العربي بالثقافة الغربية إلى يوم الناس هذا، وكل ما نقرأه ونسمعه اليوم عن هذه القضية من دراسات وأبحاث إنما هي نتاج عمل هذين الرجلين.

الغارة الهللينية والبيان العربي:

لا بد أن نشير إلى قضية مهمة قد غفل عنها كل من حاول ربط التراث العربي بالثقافة الغربية، وهي أنهم جميعا لم يأتوا بدليل واحد مادي يؤكد مزاعمهم، بل إن كل ما كتبوه إنما هو عبارة عن تخمينات وافتراضات وإسقاطات من هنا وهناك لا تصمد أما الحجة والدليل والبرهان[5].

لقد كتب إبراهيم سلامة في أطروحته: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، وزعم فيها أن عبد القاهر لم يكن متأثرا بأرسطو في التبويب والتفاريع والتفاصيل، بل كان متأثرا به في الجانب النحوي، "لأنه فهم كما فهم أرسطو أن النحو صلب البلاغة"[6]. لقد كان إبراهيم سلامة يبحث عن الأثر الأرسطي في كتابي عبد القاهر "فوجد نفسه يتناول ما يختلف فيه أرسطو عن عبد القاهر وهكذا لم يسعفه الفصل العشرون من كتاب الشعر في المقارنة، وانطفأ أمام بصره ادعاء طه حسين، فراح يدرس جوانب من الرؤية البيانية لعبد القاهر حتى اختفت أصداء أرسطو من تلك الدراسة"[7].

أما شوقي ضيف فقد وقف حائرا بين الشك واليقين في مسألة التأثير، ولم يكن لديه دليل مادي واحد سوى أنه يزعم ثم يحس ثم يؤمن، يقول في أثناء حديثه عن الفصل والوصل بين الجمل عند عبد القاهر:" ونحس في كلامه أصداء من تنويه أرسطو المتكرر بهما في كتابه الخطابة"[8].

وهذا ما نجده عند جابر عصفور الذي اهتم في كتابه: "الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي" بالصورة الفنية، وقد اتهم عبد القاهر بالاضطراب في فهم التخييل الشعري مما "منعه من إدراك الصلة القوية بين الصور البلاغية وبين التخييل

الشعري على نحو ما نجده عند ابن سينا مثلا"[9]، ومن هنا لم يكن عبد القاهر "على معرفة كافية بأرسطو بل لم يكن على معرفة كافية بشراحه العرب"[10].

يرى عصفور أن البلاغيين والنقاد العرب في الفترة التي قام بدراستها لم يكن لديهم معرفة بالأسس النظرية التي يقوم عليها الشعر لأن العرب في نظره "لم يأخذوا إلا قشورا من أفكار أرسطو (...) وهي أفكار ظلت في مجملها غير مفهومة كل الفهم، أو غير واضحة في أذهان البلاغيين والنقاد، مما عاقها من أن تحدث تأثيرا يتناسب مع قيمتها"[11].

والغريب أن كثيرا من الباحثين اليوم يزعمون أن النحو العربي القديم الذي سن منهجه الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه قد تأثر بالغارة الهللينية، خاصة أرسطو، فهم يقررون في حسم كبير أنه تأثر به بصورة واضحة، فـ" كما تأثرت بعض التقسيمات النحوية بالبحوث الفلسفية الإغريقية تأثر بعض النحويين بالخصائص المنطقية للفكر اليوناني في بعض المجالات. ويلمس في هذه الناحية بداية التأثير المنطقي في الأصول النحوية"[12]. ثم يستمر الباحث مدعيا أن النحو العربي القديم تأثر بالغارة الهللينية في أصوله الأولى ما بعد الخليل نهاية بالزجاج، أي قرابة قرن ونصف قرن، وهذه المرحلة أكثر المراحل أهمية في تاريخ النحو العربي "إذ هي المرحلة التي شهدت بداية التفاعل الحقيقي بين الفكر العربي الإسلامي وبين الأفكار غير العربية الإسلامية بعامة، والإغريقية منها بصورة خاصة، والميتافيزيقية والمنطقية منها بوجه أخص"[13].

الأفكار وطريقة تأليفها في التراث البلاغي العربي:

إن الأفكار وطريقة تأليفها تختلف من أمة إلى أخرى، لأن الجنس البشري والأمزجة وطريقة التفكير والنظر في الأشياء يختلف من أمة إلى أخرى، فنحن حين نقرأ " في النحو ما يجوز في الأوضاع اللغوية وما لا يجوز فنحن نقرأ في عقل الأمة وقلبها ما

يجوز في المواضعات الفكرية وما لا يجوز (...) فإذا قال النحاة إن الصفة يجب أن تتأخر عن الموصوف فذلك لأن طريقة تناول الأشياء والإبانة عنها جرت في مزاج هذه الأمة على ذلك"[14].

وفي هذا المعنى يقول عبد القاهر الجرجاني:" وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي كانت له هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة. وهذا الحكم، أعني الاختصاص في الترتيب، يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل، ولا يتصور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصيص في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة وأقسام الكلام المدونة، فقيل من حق هذا ذلك، ومن حق ما ههنا أن يقع هناك، كما قيل في المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل، حتى حظر في جنس من الكلم بعينه أن يقع إلا سابقا وفي آخر أن يوجد إلا مبنيا على غيره وبه لاحقا، كقولنا: إن الاستفهام له صدر الكلام، وإن الصفة تتقدم على الموصوف إلا أن تزال عن الوصفية"[15].

ويقول ابن خلدون في السياق ذاته وكأنه يشرح كلام عبد القاهر:" كل معنى لا بد أن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع، وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب، وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الألسن"[16].

لقد كان تفكير أرسطو تفكيرا منطقيا إلى أقصى تقدير "بمعنى أنه يقوم على التحليل ولا يلجأ إلى التركيب إلا في القليل النادر جدا. وهذه النزعة المنطقية تسود كل نواحي التفكير اللأرسطاطالي (...) ومن هنا كان للأبحاث اللغوية نصيب كبير في تفكيره"[17]، وهذا يعني أن فلسفته فلسفة تصورية، إلا أنه مازجها ببعض الملاحظة والتجربة فاختلطت بالواقع. ومذهب أرسطو يقوم على فكرة الهيولى والصورة؛ فيما يخص ما بعد الطبيعة أو في علم الطبيعة، أما فيما يخص ما بعد الطبيعة "فالصورة المطلوب الوصول إليها هي ماهية الأشياء الحقيقية، ثم الصورة النهائية لكل هذه الماهيات أو صورة الصور، وهي الله"[18]. أما فكرة الصورة في علم الطبيعة "فهي ما يسميه باسم الكمال، والكلمة من حيث اشتقاقها في اليونانية تدل على الغاية إذ معناه بالتفصيل: ما يكون حاصلا على الغاية، أي ما يكون حاصلا على الصورة"[19].

إن المناظرة التي جرت بين متى بن يونس وأبي سعيد السيرافي تؤكد بجلاء كبير أن اللغة التي يسعى إليها "متى" لغة عالية علمية منطقية يونانية، أما اللغة التي يدافع عنها السيرافي فهي لغة عربية عادية. إن متى يحاول أن يخضع اللغة العادية لكي ينشىء لغة علمية فنية عالية تعبر عن أفكار أرسطو ومعانيه وحقائقه، على حين يدافع السيرافي عن اللغة العادية[20].

وقد أكد عبد الرحمن بدوي أن نشأة المنطق كانت مرتبطة أساسا بـ "النحو اليوناني" في الثقافة اليونانية "إن نشأة المنطق نفسه مرتبطة بالنحو، فقد بدأت البذور الأولى للمنطق عند اليونان في أبحاث السوفسطائية الخاصة باللغة والخطابة والنحو بوجه خاص"[21]، وهذا يعني أن المنطق الأرسطي نابع من اللغة اليونانية، فهل يمكننا عند ذاك أن نطبقه على النحو العربي؟.

إننا حين نحاول تطبيق المناهج الغربية على اللغة العربية ونحوها فإننا لا ندعو إلى تعلم آليات المنهج كما يدعي الكثير من أصحاب النوايا الطيبة أو السيئة، بل إننا

ندعو إلى تعلم اللغة التي جاءت من خلالها تلك المناهج، وهذا ما لاحظه السيرافي في مناظرته الشهيرة فقد فهم السيرافي المنطق، كما فهمه فقهاء اللغة العرب، على أنه النطق الملازم للغة معينة، والتركيب الذي يكمن في الكلام فيجعله قولا معقولا، لقد فهمه (مثلهم) على أنه (منطق اللغة) أو (منطق العربية). كذلك فإنه فهم (منطق أرسطو) أو (منطق اليونان) على أنه النطق الملازم للغة اليونانية كما يتحدثها الإغريق، وكما استخدمها أرسطو في التعبير عن نفسه، ولذلك فهو يتهم "متى" بأنه يدعو تلاميذه لا لتعلم (علم المنطق)، بل لتعلم اليونانية نفسها.

منهج "البيان" ومصادره عند عبد القاهر الجرجاني:

إن عبد القاهر الجرجاني كان يسير وفق منهج دقيق استقاه من منهج العلماء الذين سبقوه، يتمثل هذا المنهج في "الهدم والبناء"، هدم المعرفة الفاسدة وإقامة مكانها معرفة صحيحة مستقيمة، وذلك عن طريق المراجعة الدائمة والدقيقة التي تتولد عنها المعرفة. ولذلك فإن تجديد الدرس البلاغي يجب أن يبدأ بكشف أصول منهج عبد القاهر وهذه الأصول لها امتدادات طويلة في التراث العربي القديم، فلا يمكن بحال من الأحوال عزل الكتاب الذي ندرسه عن تربته التي أمدته بالأفكار والخواطر لأنها مراجعه التي يرجع إليها وبمقدار تمثل عقل المؤلف وقدرته على حوار هذه الأبنية الفكرية في بيئته العقلية تكون حيوية الأفكار ويكون ثراؤها.

إن قراءة عبد القاهر الجرجاني يجب أن تكون مختلفة عن قراءة غيره من العلماء لأنه كان "يؤسس" للعلم، ولهذا يجب أن نبحث عن حركة "العقل" عنده كيف كانت تتحرك، وكيف كانت تأخذ وترفض، وكيف كانت تعامل مع مصادرها التي اعتمدت عليها ولا يكفي في هذا أن نقول إنه أخذ عن فلان أو علان، وانتهى الأمر، ولا شك "أن وراء تفرد كل عقل حي يقظ عقلا عظيما ولج أعماقه ووضع بصمته في هذه الأعماق"[22]

وعند الحديث عن مصادر عبد القاهر في علمه ليس المقصود منه ذكر من أخذ عنهم ونقول في ذلك إنه أخذ عن فلان وفلان ونقف عند هذا الحد، بل إن المقصود بالمصادر في هذا المقام هو أن نبحث عن المصادر التي استخرج منها علمه، وكيف استخرجه، ولذلك فإن عبد القاهر اعتمد اعتمادا كبيرا على تراث رجلين كبيرين في الثقافة العربية الإسلامية هما: الجاحظ وسيبويه، فقد استطاع عبد القاهر أن يكون من العلماء القلائل الذي استطاعوا أن يحللوا تراث الجاحظ تحليلا دقيقا "وكان في كثير من صفحات كتابيه كأنه يعمد عمدا إلى شرح كلام الجاحظ، وأهم من هذا وأكثر إثارة أنه كان يشرح الجاحظ مستضيئا بعلم الخليل وسيبويه"[23]. ولذلك ذكر علم النحو في بداية الدلائل ودافع عنهن وذكر الشعر ودافع عنه كذلك، وهو يقصد إلى هذه المنهجية في استخراج العلوم وبنائها ولذلك يمكننا أن نقول إن عبد القاهر مزج بين علمين جليلين شامخين هما " علم معاني النحو الذي فتقه الخليل وسيبويه وعلم صناعة الشعر كما ألم به الجاحظ، وقدح هذين العلمين كلا بكل"[24].

وهنا يجب أن نفرق بين نوعين من المصادر عند دراستنا عبد القاهر: المصادر التي سبقته بذكر المعرفة وذكرها هو في كتابه كما فعل مع القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز وكتابه الوساطة، فهو يذكره أحيانا مباشرة ويذكر تعليقاته، وهناك نوع آخر من المصادر يدخل في صلب مادة العالم التي ابتدأها واستخرجها بنفسه " وكان عبد القاهر يعنى عناية خاصة بالكتب التي ابتدأت المعرفة واستخرج منها أصحابها علما بنظرهم واستنباطهم وتأملهم (...) وكان يجد في كتاب سيبويه بغيته لأن سيبويه كان كلفا بالاستخراج"[25].

وقد ذكر عبد القاهر أن سيبويه قال عبارات جاءت على غير مثال ولم يستطع أحد أن يأتي بمثلها دقة واستخراجا واستنباطا، وذلك قول سيبويه في أول الكتاب :"وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى وما يكون ولم يقع وما

هو كائن لم ينقطع"[26]، يقول عبد القاهر معلقا على هذا التعريف :" لا نعلم إذا أتى في معنى هذا الكلام بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريبا منه، ولا يقع في الوهم أيضا أن ذلك يستطاع أفلا ترى أنه إنما جاء في معناه قولهم والفعل ينقسم بأقسام الزمان ماض وحاضر ومستقبل، وليس يخفى ضعف هذا في جنبه وقصوره عنه ومثله قوله: كأنهم يقدمون الذي أهم وهم ببيانه عنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنياهم"[27].

لقد استشهد عبد القاهر بكلام سيبويه خاصة في باب التقديم والتأخير الذي كتبه عبد القاهر في كتاب الدلائل، وكانت لفتة سيبويه هي الأساس الذي بنى عليه عبد القاهر هذا الباب، وذلك قول سيبويه :"كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"، وهذه كلمة جامعة ومبهمة ولا يجوز أن تبقى بإبهامها وإجمالها، وقد طبق هذه القاعدة في أنواع كثيرة من التقديم والتأخير في الكلام العربي، في تقديم الفعل وتأخيره في باب الاستفهام، والتعريف والتنكير، وفروق الخبر، والفصل، وكل ما يدخل في تكوين الكلام، وقد أكد على قضية مهمة وهو يبحث هذا الباب وهي أنه ما من لفظ قدم في أي موضع من مواضع الجملة إلا وكان لهذا التقديم سر من الأسرار علمه من علمه وجهله من جهله، وما على المتذوق للكلام إلا البحث عن السر الكامن في هذا التقديم والتأخير، ولا يجوز تعليل ذلك بضرورة الشعر أو الفواصل في القرآن أو الأسجاع في النثر، يقول :"واعلم أنه من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيدا في بعض الكلام، وغير مفيد في بعض، وأن يعلل تارة بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهذا قوافيه ولذلك سجعه، ذلك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى"[28].

وقد وصف عبد القاهر باب التقديم والتأخير وصفا دقيقا يقول فيه :"هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة،

ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعر يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[29].

وهذا النص يحمل الكثير من المعاني التي يجب أن نقف عند مصطلحاتها خاصة قوله: "بديعة" "لطيفة" والفعل "يلطف" و"تنظر" ، لأن "البديعة" هي الشيء المكنون الذي لا يظهر إلا بعد البحث والتنقيب، و"اللطيفة" كذلك لها معنى "السر" وهذا لا يكون إلا بالنظر والتلطف، ونص عبد القاهر هذا لم يجد له إلا كلمة سيبويه "كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم" وبهذا رأى عبد القاهر فجوة متسعة بين الواقع العملي والفكر النظري أو بين التطبيق والتنظير كما نقول، والواجب أن يكون التنظير مواكبا للواقع العملي في أبنية اللغة"[30].

لقد لاحظ عبد القاهر في تراث من سبقه من البلاغيين والنحاة أن هذه العبارة بقيت مبهمة غامضة وكان كل من جاء بعد سيبويه يرددها دون توضيح لبيانه أو إعطاء الشواهد الكافية عليها، وقد مر بها هو كذلك وهو يشرح كتب النحو ولم يستخرج منها شيئا، وقد بان له بأخرة أن جودة الكلام ترجع إلى خصائص الألفاظ وأحوالها التي هي معاني النحو، وهذا يعني أن ربط المعاني النحوية بمقاصد المتكلمين هو جوهر العلم الذي إليه ترجع جودة الكلام الجيد.

وحين انتقل عبد القاهر إلى دلالة التقديم في الخبر المثبت وأنه يفيد التأكيد لم يكتف بعبارة سيبويه السابقة، بل ذهب إلى كلام آخر من كلامه، وهو قول سيبويه في المفعول الذي يتقدم على الفعل الناصب له ثم يرفع هذا المفعول على الابتداء ويعمل عمل الفعل الذي كان ناصبا له في ضميره كقولك في عبد الله أكرمت بنصب عبد الله على المفعولية: عبد الله أكرمته برفعه على الابتداء، قال سيبويه: وإنما قلت عبد الله فنبهته له ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء"[31].

وعبد القاهر يزيد هذه المسألة بيانا وعمقا في البحث في رده على الاعتراض الذي قد يصدر من بعض المعترضين الذي يقول فيه:" فمن أين وجد أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل آكد لإثبات ذلك الفعل له، وأن يكون قوله: هما يلبسان المجد، أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال: يلبسان المجد"[32].

يقول عبد القاهر في رد هذا الاعتراض إن الاسم إذا عري عن العوامل فإن ذلك لا يكون إلا قد نُوي إسناده إليه "وإذا كان كذلك، فإذا قلت: عبد الله فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت: قام أو قلت: خرج، أو قلت: قدم فقد علم ما جئت به وقد وطأت له وقدمت الإعلام له، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق"[33].

وهذا الكلام من عبد القاهر زيادة شرح وتفصيل لكلام سيبويه السابق في شأن تقديم المفعول به الذي صار مبتدأ، والقاعدة في ذلك قولهم: إن الشيء إذا أضمر ثم فسر، كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار"[34].

والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم، فقد مثل عبد القاهر لهذه القاعدة بقوله تعالى:" فإنها لا تعمى الأبصار" (الحج/46)، فهذا الكلام القرآني أبلغ من قولنا: فإن الأبصار لا تعمى، وكذلك قوله تعالى:" إنه لا يفلح الكافرون" (المؤمنون/117) فهو يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين ما لو قيل: إن الكافرين لا يفلحون، "ولم يكن ذلك كذلك إلا لأنك تعلمه إياه من بعد تقدمة وتنبيه، أنت به في حكم من بدأ وأعاد ووطد، ثم بنى ولوح ثم صرح، ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق"[35].

والعبارة التي بنى عليها عبد القاهر كل هذا من كلام سيبويه هي قوله:" فنبهته إليه" (التنبيه)، وهي لفظة لم يعرها النحاة قبل عبد القاهر أية أهمية لأنهم لم ينشغلوا بما

انشغل به عبد القاهر ولها علاقة وطيدة بمقاصد المتكلمين. لقد "كان سيبويه عند عبد القاهر أوسع الناس علما بمعاني النحو، وكان الجاحظ أوسع الناس علما بالشعر، والنحو والشعر هما اللذان استخرج منهما هذا العلم، لأن الشعر كما قال هو معدن البلاغة، والنحو هو الناسب لها الذي ينميها إلى أصولها"[36].

اعتماد عبد القاهر على الإشارات التي كان يذكرها الجاحظ:

والمثال على هذا أن عبد القاهر اعتمد على إشارات للجاحظ في تحليله لبيت البحتري الذي يقول فيه:

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ دد والمجد والمكارم مثلا

يقول عبد القاهر تعليقا على هذا البيت:" المعنى: قد طلبنا لك مثلا، ثم حذف، لأن ذكره في الثاني يدل عليه، ثم إن للمجيء به كذلك من الحسن والمزية والروعة ما لا يخفى. ولو أنه قال: قد طلبنا لك في السؤدد والمجد والمكارم مِثلا فلم نجده، لم تر من هذا الحسن الذي تراه شيئا. وسبب ذلك أن الذي هو الأصل في المدح والغرض بالحقيقة، هو نفي الوجود عن "المثل" فأما "الطلب"، فكالشيء يذكر ليبنى عليه الغرض ويؤكد به أمره. وإذا كان هذا كذلك، فلو أنه قال: قد طلبنا لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلا فلم نجده، لكان يكون قد ترك أن يوقع نفي الوجود على صريح لفظ "المثل" وأوقعه على ضميره، ولن تبلغ الكناية مبلغ التصريح أبدا"[37].

والمهم في هذا النص أنه يسوق كلاما للجاحظ يستدل به على ما ادعاه في تحليله لبيت البحتري حيث يقول :"ويبين هذا، كلام ذكره الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، وأنا أكتب لك الفصل حتى تستبين الذي هو المراد، قال:

والسنة في خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب، ألا ترى أن قيس بن خارجة بن سنان لما ضرب بسيفه مؤخرة راحلة الحاملين في شأن حمالة داحس والغبراء وقال: ما لي فيها أيها العَشَمَتان؟ قالا: بل ما عندك؟ قال: عندي قرى كل

نازل، ورضى كل ساخط، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل، وأنهى فيها عن التقاطع. قالوا: فخطب يوما إلى الليل، فما أعاد كلمة ولا معنى. فقيل لبني يعقوب: هلا اكتفى بالأمر بالتواصل، عن النهي عن التقاطع؟ أوليس الأمر بالتواصل هو النهي عن القطيعة؟ قال: أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشيف"[38].

ثم يشرح عبد القاهر بيت البحتري من الناحية النحوية ذلك أن الأصل قد طلبنا لك مثلا فلم نجده ولكن الشاعر أعمل الفعل الثاني الذي هو نفي الوجود في لفظ المفعول الذي هو مثل، وحذف مفعول الفعل الأول لدلالة الثاني عليه، وإنما لجأ إلى هذا لأن المقصود الأصلي هو نفي وجود مثله، والفعل الذي يمثل رأس المعنى في البيت هو الفعل الثاني وليس الفعل الأول لأن الفعل الأول هو تقدمة ووطاء للفعل الثاني الذي هو نفي الوجود "ولو أننا أعملنا طلبنا في صريح لفظ المثل، لكان الفعل الأصلي الذي هو نفي الوجود عاملا في ضميره، وهذا من وضع المعنى النحوي في غير موضعه، وبه يضعف الكلام وينشف ماؤه، ويذهب رونقه"[39].

وجوهر المسألة وسرها البلاغي هي أن عبد القاهر استطاع أن يجمع بين تحليله للبيت من جهة النحو وربطه ذلك بنص الجاحظ الذي نقله من كتاب البيان والتبيين، ولذلك علينا نحن أن نتأمل أين وقعت الفكرة، وما المراد بها؟ وكيف خامرت عقله، وإلى أين نقلها؟ والمعنى الذي استخرجه منها.

والنص الذي نقله الجرجاني عن الجاحظ نقله الجاحظ عن الخُرَيمي أبي يعقوب، ثم نقل الجرجاني كلام الخريمي إلى معاني النحو، في باب التنازع "ومثل هذا الأسلوب راجح عند الكوفيين لأنهم يعملون الثاني لقربه، ومرجوح عند البصريين لأنهم يعملون الأول لتقدمه، ولكن الشاعر اختار إعمال الثاني للسر الذي ذكره عبد القاهر"[40].

كتاب دلائل الإعجاز شرح للعبارات الغامضة لدى البلاغيين السابقين:

وعبارات العلماء في هذا يمكن أن نستخرجها من كلام الجاحظ مثلا، فقد نقل الجرجاني عنه مصطلحات كثيرة وحاول شرحه وبيان المقصود منها، قال الجاحظ وهو يذكر إعجاز القرآن:" ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب، لظهر عجزه عنها".

وفي هذا النص بعض العبارات التي توهم أنها واضحة إلا أن عبد القاهر عانى منها معاناة شديدة وبنى عليها علمه، وهي: نظامها، مخرجها، من لفظها، طابعها.

ويقول الجاحظ في نصه المشهور عن المعاني والألفاظ:" والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة، وضرب من التصوير"[41].

وهذا نص كذلك مهم يحمل الكثير من المصطلحات الغامضة، وهي: إقامة الوزن، تخير اللفظ، سهولة المخرج، صحة الطبع، كثرة الماء، جودة السبك، الصياغة، التصوير، "وهذا المعجم الذي تراه أبرز ما استصفاه عبد القاهر من كلام الجاحظ يمثل الذي قاله العلماء والبلغاء في صفة البلاغة، والإخبار عنه، وأنه رموز، ليس في جملة الخفايا أغرب في الغموض مذهبا منه، وأنه اللغة الخاصة التي تتواصل بها طبقة "خاصة" لا يفهمها عنهم إلا من كان في لطف طباعهم، وأنه تشبه الترجمة التي يتواضع عليها قوم"[42].

وقد كانت لغة غامضة عند عبد القاهر منذ أن طلب العلم، وقد عانى هذا الغموض وهو ينظر في تراث من سبقه من العلماء، يقول:" ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في

خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها"[43].

إن فضل عبد القاهر يعود إلى أنه وضع شرحا مفصلا ودقيقا لكلام البلاغيين الذين سبقوه الذي جاء مبهما في كثير من الأحيان في كتبهم، وفي هذا يقول:" هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما يكون به النظم دفعة وينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحد، ويرى مشئما قد ضم إلى معرق، ومغربا قد أخذ بيد مشرق، وقد وصلت بأخرة إلى كلام من أصغى إليه وتدبره تدبر ذي دين وفتوة دعاه إلى النظر في الكتاب الذي وضعناه"[44].

خاتمة البحث:

إن النتيجة التي يجب على الدارس أن ينتهي إليها من خلال هذه الورقة البحثية هي أن عبد القاهر لم يكن إلا صاحب منهج أصيل استقاه من علماء البلاغة والنحو السابقين له أمثال الجاحظ وسيبويه خاصة، وهذان العَلمان لم يكن منهجهما مستمدا من غيره، إلا ما نقرأه لبعض الباحثين الذي يردون كل شيء إلى الأصول الهللينية، وهذا لا يتلفت إليه، هذه واحدة، والأمر الثاني الذي يجب أن ننتهي إليه هو أن كثيرا من الدارسين والباحثين اليوم لم يكن لديهم جهاز قرائي جيد للتراث، هذا التراث الذي لا يمكن أن نقرأه إلا بنفس الجهاز القرائي الذي كان لدى السابقين، لأن وسيلة القراءة لها دور أساسي في فهم مسائل العلم عند علمائنا القدماء، وهذا يفيدنا نحن في بناء منهج أصيل له ارتباط بما كان عليه هؤلاء العلماء. ولهذا جاءت آراؤهم ينقصها الدليل المادي على فكرة التأثير، ولم تكن تلك الآراء إلا محضا من التخمين

والافتراض وهي في أقصى حالاتها مجرد تلقف لبعض المصطلحات المتشابهة في التراثين وإلصاقها عنوة بالتراث العربي.

المراجع:

[1] عباس ارحيلة: عبد القاهر الجرجاني ومسألة التأثير الأرسطي في البيان العربي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، المغرب، العدد9، 1994، ص16

[2] المرجع نفسه، ص2

[3] المرجع نفسه، ص7

[4] المرجع نفسه، ص2

[5] وفي هذا الصدد يقول الأستاذ الديدي:" لم يستطع النقاد المعاصرون أن يفهموا عبد القاهر فهما واضحا على الرغم من التفاتهم إليه، وعلى الرغم من كلفتهم به، فكثيرون كتبوا عن عبد القاهر، وكثيرون قرؤوه، ودرسوا كلامه واتجاهه في النقد، ولكن قل أن تجد من بين جملة البحوث التي عملت عنه بحثا واحدا جديرا بالإشارة والالتفات؛ فأغلب ظني أن مصدر عجزهم في الكتابة عن الجرجاني كما يلزم إنما هو مخالفته في نظرياته، وفي فهمه، وذوقه، للأنماط الأدبية التي يؤمنون بها، وسيره على طريقة أخرى غير الطريقة التي يمضون بها، وتقوم أنظارهم عليها، فلو أن القراء فهموا نظريات الجرجاني واستساغوها، وتأثروا بها، لخسر هؤلاء النقاد أنفسهم بمدارسهم وأساتذتهم، وكل ما لهم من قيمة في عالمنا الأدبي، فهم لذلك لم يشاؤوا أن يعرف قراء العربية عبد القاهر معرفة تفصيلية كاملة، ولم يحبوا أن يدللوا على أفكارهم النقدية بأمثلة ونماذج من أدبنا المعاصر خشية الافتضاح وتمرد الأذواق عليهم، والآن أحسبنا في حاجة إليه بعد أن تفشت عندنا الكتابة الأسلوبية، وبعد أن انتهى كتابنا إلى حالة بعيدة عن المظهر الجدي اللائق" خصائص التراكيب ص74

[6] إبراهيم سلامة: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الأنجلو المصرية مصر، ط1 1950، ص257

[7] عباس ارحيلة: عبد القاهر الجرجاني ومسألة التأثير الأرسطي في البيان العربي، ص9

[8] شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط8، 1992، ص178

[9] جابر عصفور الصورة: الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط3، 1992، ص325

[10] المرجع نفسه، ص326

[11] المرجع نفسه، ص326

[12] علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي، دار الثقافة بيروت لبنان، دط، دت، ص82

[13] المرجع نفسه، ص78

[14] محمد أبو موسى: خصائص التراكيب، ص68

[15] عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، قرأه علق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة المدني مصر، ط1، 1991، ص5

[16] ابن خلدون: المقدمة، دار الجيل بيروت لبنان، دط، دت، ص610

[17] عبد الرحمن بدوي: أرسطو، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت لبنان، ط2، 1980، ص279- 280

[18] المرجع نفسه، ص283

[19] المرجع نفسه، ص283

[20] محي الدين محسب: في علاقة المنطق بالدرس اللغوي في التراث العربي، مجلة جذور ج22، مج10، 2005، ص53

[21] المرجع نفسه، ص48

[22] محمد أبو موسى: مدخل على كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة القاهرة مصر، ط1، 1998، ص20

[23] المرجع نفسه، ص14

[24] محمد أبو موسى: مدخل على كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص9

[25] المرجع نفسه، ص25

[26] سيبويه: الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت لبنان، ط1، دت، ج1، ص12

[27] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص5-6

[28] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص110

[29] المصدر نفسه، ص106

[30] محمد أبو موسى: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص29

[31] سيبويه: الكتاب: ج1، ص41

[32] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص132

[33] المصدر نفسه، ص132

[34] المصدر نفسه، ص132

[35] المصدر نفسه، ص133

[36] محمد أبو موسى: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص34

[37] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص168

[38] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص169، انظر البيان والتبيين ج1، ص116

[39] محمد أبو موسى: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص45

[40] المرجع نفسه، ص46

[41] الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة البابي الحلبي القاهرة مصر، 1965، ج1، ص131- 132

[42] محمد أبو موسى: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص39

[43] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص34

[44] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص3-4